الباب الثالث

حرية التفكير والتعبير فى الإسلام

١

موقف الإسلام من حرية التفكير والتعبير بوجه عام

يقصد بحرية التفكير والتعبير أن يكون للإنسان الحق فى أن يفكر تفكيرًا مستقلا فى جميع ما يكتنفه من شئون وما يقع تحت إدراكه من ظواهر، وأن يأخذ بما يهديه إليه فهمه، ويعبر عنه بمختلف وسائل التعبير.

وقد أقر الإسلام هذا الحق فى أوسع نطاق. فمنح كل فرد الحق فى النظر والتفكير وإبداء رأيه عن أى طريق شاء.

وعلى هذا المبدأ الجليل سار الرسول ﷺ وسار الخلفاء الراشدون من بعده. فقد كانت حرية الرأى فى عهدهم جميعًا مكفولة ومحاطة بسياج من القدسية. وباستقراء تاريخ هذه المرحلة الذهبية التى تمثل مبادىء الإسلام أصدق تمثيل لا نعثر على أية محاولة من جانب أولى الأمر للحجر على حرية الآراء. بل إن العمل بهذا المبدأ قد ظل مرعيًّا فى عهد بنى أمية وصدر بنى العباس. فما كان الخلفاء فى هذين العصرين ليحاربوا إلا

الآراء التى يعتقدون أنها تهدد سلامة الدولة أو تنشر الفتنة بين الناس وكان هؤلاء وأولئك يستوحون ما يسيرون عليه فى هذا الصدد من روح الإسلام ومبادئه. بل إن احترام بعض الخلفاء لحرية الرأى فى عصر بنى أمية وبنى العباس قد وصل إلى حد جعلهم يتحرجون من وضع أى قيد فى هذا السبيل. فقد كان الناس فى عهد عمر بن عبد العزيز والمأمون بن هارون الرشيد وغيرهما يتناقشون بكامل الحرية وفى حضرة الخليفة نفسه فى شأن الأسرة المالكة ومبلغ استحقاقها للخلافة.

٢

موقف الإسلام من حرية التفكير العلمى

ويدخل فى الحرية الفكرية ما يسمونه بالحرية العلمية وحرية التفكير العلمى، وهى أن يكون لكل فرد الحق فى تقرير ما يراه فى صدد ظواهر الفلك والطبيعة والحيوان والنبات والإنسان، والأخذ بما يهديه إليه تفكيره وما يقتنع بصحته من نظريات، والتعبير عن رأيه بمختلف وسائل التعبير.

ولا يختلف موقف الإسلام حيال هذه الحرية الفكرية الخاصة عن موقفه حيال الحرية الفكرية العامة الذى بيناه فيما سبق.

فالإسلام لم يحاول مطلقًا أن يفرض نظرية علمية معينة بصدد أية ظاهرة من هذه الظواهر. ولم يعرض القرآن ولا السنة الشريفة لتفاصيل هذه الأمور. وكل ما فعله القرآن فى هذه الناحية أنه استحث العقول على النظر فى ظواهر الكون، وحفز الناس على التأمل فى هذه الشئون واستنباط قوانينها العامة، وأثار فى نفوسهم حب الاستطلاع حيال الأمور التى لا تثير الانتباه بطبعها لتكرر حدوثها وسيرها على وتيرة واحدة وإيلاف الناس النظر إليها كشئون الليل والنهار والشمس والقمر والكواكب وتتابع الفصول وتناسل الحيوان وتكاثر النبات وطفو بعض الأجسام على الماء ونزول المطر... وما إلى ذلك من مسائل العلوم والفنون، فبيّن لهم أن هذه الأمور جديرة بالتأمل، وأن فيها مجالاً كبيرًا للنظر والعبرة والبحث العلمى.

وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾؟![1]. ويقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ

(١) آية ١٨٥ من سورة الأعراف.

ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[1]. **ويقول:** ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾[2]. **ويقول:** ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾[3]، **ويقول:** ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾﴾[4]..

وهكذا نرى توجيه الله تعالى لنا إذ طَوَّف بنا جميع أنحاء الكون سمائه وأرضه، حيّه وميته، حيوانه ونباته وإنسانه،

---

(١) آية ١٦٤ من سورة البقرة.
(٢) آيتى ٤٣، ٤٤ من سورة النور.
(٣) آيتى ٢٢، ٢٣ من سورة الروم.
(٤) آيات ١٧ – ٢٠ من سورة الغاشية.

لا لشـيء إلا لحثّ العقول على النظر والتدبّر فى هذه الظواهر واسـتنباط القوانيـن العامـة الدقيقـة التى تحكمها وتسـير بمقتضاها، ولنتخذ من ذلك دليلا على قدرته وحسـن صنعه: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ (١).

وفـى جميع هذه الآيات وما إليهـا التى يزخر بها الكتاب الكريم لا نشـتَمّ أية رائحة لفرض نظريـة علمية معينة، ولم يقصـد القرآن بالتوجيهات الواردة فيها إلا ما ذكرناه من حث العقـول على النظر فى محتويات الكون، ثم ترك بعد ذلك لكل فرد كامل الحرية فـى تقرير ما يراه، والانتصار له، واعتناق ما يقتنع بصحته من نظريات.

ولا أدل علـى ذلك من أن القرآن فى إجابته عن سـؤال وجِّه إلى الرسـول عن مراحل القمر وأسباب تزايد قرصه وتناقصه، قد تحاشى أن يدخل فى تفاصيل هذه الأمور الفلكية وقوانينها، حتى لا يفرض نظرية علمية على العقول، كما فعلت الكاثوليكية المنحرفـة من قبـل، وحتى لا يحجر علـى الأذهان النظر فى هذه الأمور، واكتفـى بأن يذكر بعض فوائد القمر، وأنه يحدد

(١) آية ٨٨ سورة النمل.

مواقيت الشهور والأيام التى تؤدى فيها شعائر الحج. وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[1]. فكأنه يقول لهم يكفى أن تعلموا فيما يتعلق بصلة الأهلّة بشئون الدين أنها مواقيت للناس فى الشهور والصيام وشعائر الحج. أما ما وراء ذلك من أسباب تزايد قرص القمر وتناقصه وخسوفه أحيانًا أو حجبه عن النظر وعلاقته بالشمس والأرض... أما هذه الأمور وما إليها فأترك لعقولكم كامل الحرية فى بحثها والاهتداء إلى كنهها وأسبابها.

ولا أدل على ذلك أيضًا من أن الرسول ﷺ حينما أشار على بعض الناس بعدم تأبير النخل، أى تلقيح إناثها بطلع ذكورها، ثم تبين أن ذلك يؤدى إلى عدم إثمارها، ذكر أنه إنما تحدث فى ذلك برأيه الخاص، وأن رأيه الخاص عرضه للخطأ والصواب، وأن هذا الحكم يسرى على كل ما يتحدث عنه من أمور الدنيا، وأن للناس الحق فى البحث فى أمور دنياهم وعلاجها على الوجه الذى تهديهم إليه تجاربهم وأفكارهم، وأنهم قد يكونون أعلم ببعضها من الرسول ﷺ

(١) آية ١٨٩ من سورة البقرة.

نفســه، وأن الأمور التى كُلف تبليغها إلى الناس من قبل الله، وهى التى لا يمكن أن يتطرق إليها الشــك، مقصورة على شئون الدين: عقائده وشرائعه. ونص هذا الحديث كما أخرجه مسلم فى صحيحه عن موســى بن طلحة عن أبيــه مرفوعًا: «إن كان ذلك ينفعهم فليصنعوه، فإننى إنما ظننت ظنًا، فلا تؤاخذونى بالظــن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شــيئًا فخــذوا به، فإنى لن أكذب على الله عز وجل». وفى رواية رافع بن خديج: «إنما أنا بشر؛ إذا أمرتكم بشىء من أمر دينكم فخذوا به؛ وإذا أمرتكم بشىء من رأيى، فإنما أنا بشر». وفى رواية عائشة: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»[1].

(١) انظر تفصيل ذلك فى شــرح النووى على مســلم وفى رسالة التوحيد للإمام محمد عبده وتعليق الســيد رشيد رضا فى هذه الرسالة على هذا الموضوع وفى مقال لنــا فى عدد أكتوبر ١٩٦٣م فى مجلة منبر الإســلام عنوانه: «حديث تأبير النخل وما يرشد إليه».

٣

تعسف بعض الكتاب فى تفسير آيات القرآن وفق النظريات العلمية الحديثة

وانحرافهم فى هذا عن مدلول اللغة وأغراض الكتاب الكريم ومن هنا تظهر لنا بشاعة الجناية الكبرى التى جناها بعض من أقحموا أنفسهم فى الدراسات الإسلامية إذ يحاولون أن يفسروا بعض آيات القرآن تفسيرًا يجعلها منطوية على النظريات العلمية الحديثة، ويسيئون بذلك أبلغ إساءة، من حيث لا يعلمون، إلى الإسلام والقرآن من عدة وجوه:

١ – فهم أولا يتعسفون كل التعسف فى تفسير آيات الكتاب الكريم، وتحميلها ما لا تحتمل من المعانى وما لم يفهمه العرب منها، ولا يمكن أن يفهمه منها ملمّ باللغة العربية وأساليبها فى البيان، حتى يتاح لهم أن يقرروا أن القرآن قد سبق البحوث الحديثة فيما قالت به من نظريات وما اكتشفته من قوانين، أو قد تنبأ بما عسى أن تنتهى إليه من نتائج، والأمثلة على ذلك تجل عن الحصر فيما يخرجه هؤلاء من كتب وما ينشرونه من مقالات.

فمن ذلك مثلا ما يقولـه أحدهم فى فصل عقده فى كتابه عن وحدة الخلق إذ يفسر قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾[1]، بـأن النفس هـى البروتون وأن زوجها هو الإلكترون، وهما العنصران اللذان تتألف منهما الـذرّة. وفى ذلك يقـول، بعد كلام كثير عن الجسـيمات التى تتألف منها الذرّة: «وهذه الحقيقة العلمية التى يتيه بها العصر الحديث قد جاء بها القرآن الكريم منذ ألف وأربعمائة سنة فى صراحة ووضوح، إذ تقرر الآية ١٨٩ من سورة الأعراف أن كل ما خلق الله إنما خلقه من نفس واحدة وجعل منها زوجها. أليست هذه هى البروتونات والإلكترونات... الكهارب الواحدة موجبة وسـالبة، أى النفـس الواحدة.. الزوجيـة الجنس بين موجب وسـالب»[2] – ومن الغريـب أنه كان يكفى هـذا الكاتب لاتقاء تخبطه هذا وتعسفه فى تفسـير الآية الكريمة أن يقرأها كاملة ويتأمل معناها إذ تقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ ﴾.

(١) آية ١٨٩ سورة الأعراف.

(٢) ص ١٣٦ من كتاب «القرآن والعلم الحديث». لعبد الرزاق نوفل.

ومن ذلك أيضًا ما يقوله المؤلف نفسه فى فصل عقده عن الأقمار الصناعية وغزو الفضاء إذ يفسر قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾[1]، فيزعم أن الآية تشير إلى الأقمار الصناعية وسفن الفضاء وما تحمله من دواب. وفى ذلك يقول: «أطلقت روسيا أجهزة علمية سميت بالأقمار الصناعية تدور حول الأرض، وأتبعتها أجهزة أخرى تحمل نوعًا من الكائنات الحية لتدرس تأثير الانطلاق والارتفاع والإشعاع والضوء والجاذبية... وهذه الأقمار التى خرجت من الأرض فى الوقت الذى انتشر فيه الإلحاد لتتحدث عما فى الكون الغامض وتزيح بعضًا من هذا الغموض، ألا يمكن أن تكون هذه هى الدابة التى تنبأ بها القرآن الكريم فى سورة النحل (صوابه فى سورة النمل) فى الآية ٨٢ التى تقول: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾[2].

(١) آية ٨٢ من سورة النمل.

(٢) ص ١٨٧ – ١٩٠ من كتاب «القرآن والعلم الحديث لعبد الرزاق نوفل».

فلعلــه يزعم أن الكلبة «لايكا» التى وضعها الروس فى أول تجربة لســفن الفضاء قبل أن يضعوا فيها أناســىّ من البشر قد تكلمت بلغة الكلاب فى أثناء دورانها حول الأرض فنعت على الآدميين عدم إيمانهم بآيات الله ! !

ومــن ذلك أيضًا ما يقوله المؤلف نفســه فى فصل عقده عن «الغُثاء الأحْوىَ» إذ يفسر هذا الغُثاء فى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾[1] بــأن المقصود منه الفحم الحجــرى. وفى ذلــك يقول: «لبثت هذه الكتــل الضخمة من الأشــجار والنباتات مطمــورة فى باطن الأرض ســنين عديدة حتى اكتشــفها الإنسان واســتعملها وقودًا سماه فحمًا. أليس ذلــك ما يقول به القرآن إذ أن الله هو الــذى أخرج المرعى ثم جعله غثاء أحوى»[2] – فبحسب ما يراه هذا الكتاب يكون الله تعالى قد مَــنّ على الناس فى القرن الســابع الميلادى بتطور جيولوجى لم يكونوا قد عرفوه بعد ولا يســتطيعون فهمه من عبارة الآية!

---

(١) آيتى ٤، ٥ من سورة الأعلى.

(٢) ص ٧٧ من الكتاب السابق ذكره فى هامش (٢) فى الصفحة السابقة.

ومن ذلك ما يقوله المؤلف نفسه فى فصل عقده عن انشقاق القمر، إذ يفسر قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾[1] فيقول: «إن القمر يقترب من الأرض، وهذا الاقتراب وإن كان يسير حثيثًا (يريد أن يقول بطيئًا فجاء بكلمة تفيد ضد المعنى الذى يريده) إلا أنه بتوالى العصور سيجعل القمر يقترب من منطقة تفوق الجاذبية منها تلك التى تجعله على بعده من الأرض الذى يحفظه.. وإن أول علامة على دخول منطقة الخطر هو حدوث زلازل مدمرة فى القمر حتى يصل الحال إلى زلزلة عنيفة دائمة تسبب انشقاقه. وإذا انشق وتهاوى مكونًا طبقات حول الأرض كما فى زحل، أفلا يؤثر ذلك فى جاذبية الكواكب وأجرام تمسكها جاذبية القمر نفسه؟... فهلا يكون ذلك دليلا على قيام الساعة؟... ويكون انشقاق القمر لذلك دليلا على اقترابها؟ أوَلا يكون القرآن قد سبق العلم الحديث بعدة قرون؟ أوَلا يلقى ذلك بضوء على تفسير الآية الأولى من سورة القمر التى تقول: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ ؟!»[2]

---

(١) آية ١ من سورة القمر.

(٢) نقلنا هذا النص بعباراته الركيكة نفسها من ص ١٦٠ من الكتاب السابق ذكره فى التعليق السابق.

وهـذا قليل مـن كثير ممـا حواه هـذا الكتـاب العجيب وما تحويه كتب أخرى على شـاكلته. وانظر إلى أى مدى يصل التعسـف بهؤلاء فى تفسـير آيات الذكر الحكيـم وتحميلها ما لا تحتمل، وفى التلاعب بكلام الله واتخاذه هزوًا.

٢ – ولا يقتصر الأمر على تعسـف هؤلاء فى تفسـير آيات الذكـر الحكيم وتحميلها من المعانـى ما لا تحتمل، بل إنهم بمسـلكهم هذا يعرضّـون كلام الله للكـذب والتكذيب: تعالت كلمـات الله عن ذلك علوًّا كبيـرًا، وذلك أن كثيرًا من النظريات العلمية ليسـت ثابتة. ولم تقل الكلمـة النهائية فيما تعالجه من ظواهر. وقد تظهر كشـوف أخـرى تبين عن خطئها أو عن نقصهـا. فإذا فسـر كتـاب الله علـى وجه يتفق مـع نظريات حاضرة، ثـم ظهر عدم صحتها فيما بعد، فـإن هذا يدعو إلى تكذيب كتاب الله، أو على الأقل زعزعة ثقة الناس بحقائقه.

٣ – وهـم بذلـك أيضًا يصمون الإسـلام بموصمة هو منها بـراء إذ يحاولون بذلك أن يظهروا القرآن بمظهر كتاب يقرر النظريـات العلميـة على أنها عقائد دينية نـزل بها الوحى الأميـن من قبـل الله تعالى. وهـذا مخالف لاتجاه الإسـلام

وروحـــه، ولما يحث عليه القرآن من التأمل فى ظواهر الكون واســـتنباط قوانينها العامة، ولما يقرره من مبادىء ســـامية تتعلق بحرية التفكير والتعبير.

■■■